الفصل السابع

مديح الأوطان والبلدن

١ ــ الأوطان :

أحب العربى الأرض التى عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً ولهفة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقاً ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب ! وفى الشعر العربى كثير من هذا المديح بدأ فى الجاهلية ولم ينته إلى اليوم . وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، نريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج إلى دار سلمى أن يصُوب سحابها
بلاد بها حلّ الشباب تمائمى وأول أرض مَسّ جلدى ترابها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التى مس ترابها جلده أول ما مسّ ؛ فهى وطنه وهى موضع حبه وتقديسه. وهو فى ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطق ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومى يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِبْتُ به الشَّبِيبةَ والصِّبَا ولَبِسْتُ ثوب العيش وهو جديدُ